لتحقيقة والتاريخ

الزهاوي

في ديوانه الاخير — تحية ذكراه الاولى

لاحمد محمد هيثم (١)

— ١ —

« الأوشال » هو أحدث دواوين الزهاوي وأوضحها مقصداً وأصدقها اتجاهاً وأقتها وأكثرها معنىً وأظهرها على الاطلاق . أبان عن شخصيته أيما ابانة وكشف ما استتر منها بوضوح وجلاء ، تغلب عليه لغة العلم الجافة التي لا تصلح كثيراً للشعر والتي فيها من التداني والتدلي ما يقربها من الارض — ووالله ما عرفت الشعر يوماً الا في السماء !!

وهو — الأوشال — كأخوته دواوين الزهاوي فيه من الايمان آيات بينات ومن التحرر ضلالات وترهات ومن اليقين حسنات طيبات ومن الشك شبهات وترغات ومن الترح لفحات وصدحات ومن البكاء عبرات وزفرات ومن الربيع ورود وباقات ومن الخريف روابع ونسمات ومن المنطق غدوات وأمسيات ومن التمرد سرحات ووثبات . فيه من البحر أواذيّ مصطخبات ومن الأوشال حفنات قليلات ومن اللذة سرور ونشوات ومن الألم إعوال وحسرات . فيه من الشباب صبوات وجهالات ومن الشيخوخة كبوات وشهقات ، فيه من الفجر أنوار وابتلاجات ومن الليل غشيات وظلمات . فيه ما يمتع الانسان وما يتعشقهُ من سحر وروعة وما يدهشه العالم من قياس ومنطق وما يتطلبهُ الفيلسوف من استشفاف للغيب وارتياد لمجاهل قضايا الكون المجهول منها والمعلوم

— ٢ —

ليس لك يا صاحبي أن تقرأ ديواناً من دواوين الزهاوي الا بعد أن تقرأ رسائله العلمية التي أودعها خلاصة آرائه ومذاهبه في الكون والحياة . ذلك لأنها بمنزلة الشرح والتفسير لشعره في مختلف أطواره وجدير بك ان تتحرر كثيراً وتتحصن وراء ثقافة علمية ومعلومات رياضية عالية قبل البدء في قراءة ذلك الرجل ومذهبه في الشعر ذلك المذهب العجيب ، حتى

(١) — أحد فصول كتابنا « جيل صدقي الزهاوي » الذي لم يطبع بعد

لا تغرّنك سهولة ذلك الشعر وسذاجة ألفاظه ورواعها فان وراء الأكمة ما وراءها ووراء تلك الالفاظ السهلة معانٍ بعيدة الغور وفلسفة للكون من العجب بمكان مبنية على استنتاجات منطقية وقوانين رياضية محتومة لا مفرّ منها، حتى لا تُظلم ولا تظلم وتكون في حكمك على هذا الرجل من الصائبين

افتتح الديوان بمقدمة أجمل فيها رأيه في الشعر وأبان عن وجهة نظره وأنهُ ذلك الطائر الفرد الذي يستوحي الطبيعة وجمالها ويفرد غير آبه بالقيود والاصفاد حاملاً رسالة التجديد والانشاء لا بناء الزائفين . ولا يعترف في مقدمته بالعاطفة التي هي قوام الشعر الصحيح ، وقد جرّه ذلك الى مشاكل جمة مع نقاده — وسنينهُ كله في موضعه من الكتاب — ولا يحب الشعر شعراً الا اذا كان لحنه وسداه مسائل العلم كشعراء الترب في هذه الايام على حد قوله ، واروع الشعر عنده ما كان علميًّا فلسفيًّا « ولم يشتهر الخيام والمتنبي والمعري الا بشعرهم الفلسفي وهو الذي يجري على الالسنة كالامثال » . ولنا ردّ على ذلك في حينه لانا من مخالفي هذا المذهب ، وقد عرّف الشاعر وقال انهُ لا يكون شاعراً الا اذا توفرت فيه ثلاث « الاولى ان يكون لهُ استعداد ذاتي للشعر والثاني ان تغزر مادته في اللغة والعلم والثالث ان يكون قد مارسهُ طويلاً » الخ . . . .

وهذا كلام لا غبار عليه غير انهُ ينقصهُ شيء من التحديد والتعريف . فكل شعور يسم لك اغلظ الايمان انهُ اوتي ملكة الشعر وانهُ يرى في نفسه القدرة على صوغ قلائده الجميلة بله على ارتجال عيونه ! ! . . . ولكن العبرة بروح الشعر روح الجمال والحب والحقيقة ذلك الروح المنطلق في الآفاق العالية والاغوار البعيدة النائية والاجواء العاطرة الساحرة المجهولة البقاع

لنترك هذا التعريف — تعريف الشعر والشاعر — فله مكانه من الكتاب ، ولنعود الى المقدمة هذه فنجد انها لا تنفع غلة ولا تشفي علة وبانيها شرحت لنا مسميات شعره وأبانت عن مذاهبه الفلسفية بعض الشيء واوضحتها كبلج الصبح ، كما يجب ان يكون الوضوح والبيان

— ٣ —

شعر هذا الديوان من الشعر الجديد لا مشاحة غير انهُ يشوبهُ بعض قصائد من المديح والرثاء ولولا انها بريئة ولشخصيات تستحق التقدير لشنت الغارة عليه

وعلى ذكر هذا الشعر شعر المناسبات — نذكر حسناته — ان كانت لهُ حسنات — احقاقاً للحق رغم تحاملنا عليه وازدرائنا لهُ ، فمن حسناته عند القدامى تلك الحكم الباهرة والاوصاف الباهرة التي زفها أمثال المتنبي والنواسي والبحتري بين ثنايا قصائدهم الى ممدوحيهم ووالله لا أدري متى تجرؤ مدارسنا الشعرية الحديثة على حذف المدح من تلك القصائد وهاته

المقطوعات كي نُقبل على هذا الشعر بشغف لايقل عن اقبالنا وشغفنا بالشعر الغربي أو الشعر الحديث في العالم العربي

ومن حسنات شعر الزهاوي — رثاء ومديحاً في ذلك الديوان وفي غيره ، رسمه صوراً مختلفة لصورته وشخصيته وقسيته وأمانيه وآماله بجانب شخصياته ، وانها لحسنة فضل نشرها لهُ عداد الاعجاب. وحسنة اخرى كبرى نشرها لهُ عداد الفخر والاشادة بذلك الشاعر الفحل ، الذي لم يمتهن كرامة الشعر والشاعر ويتجر بشعره ويتزلف به الى اولي الامر او الملوك والامراء على الاقل ، الذي حقق ان الشاعر بثابة ملك غير متوج وحقق أيضاً — عملياً — نظريتنا المتضمنة عدم الاعتراف بشعر الرثاء والمديح لعدم صدقه وروعته وانسانيته في معظم الاحايين. فقد آثر المغفور لهُ الملك فيصل عقب تتويجه ان يجعل من المرحوم الزهاوي شاعره الخاص مقابل مكافآت مالية لامقطوعة ولا ممنوعة لفقره وعوزه يومئذ ، فرفض بأباء وشمم ان يكون — طيلة حياته — «العصفور السجين الذي تلقى اليه الحبات في قفصه الصغير ليعيش ويتردد مكرهاً وينوح مكرهاً» فألح عليه المغفور لهُ الملك فيصل ان لايخالفهُ في مسألة كهذي — وما اراد جلالته بهذا غير سد عوزه وفقره يومئذ لما يطلعهُ عن صلابته ومبلغ اعتداده بنفسه — فلم يتزحزح عن رأيه قيد أنملة قائلاً لهُ « ان مدحك يامولاي فرضٌ عليّ اذا ما ومضت بارقة امل للوطن العزيز في عهدك السعيد . اما الذهب يامولاي فلا حاجة للشعر به لانهُ لن يجمّل تاجه الجميل » ! ! . .

— ٤ —

يطالعك هذا الديوان بقصيدة فلسفية عنوانها « منك أنا » ومطلعها

يا روح هذه الدنى شرارة منك أنا
قد استطارت تبتغي لنفسها ان تعلنا
إن بصيصي كلهُ من بعض ذلك السنا
انك انت الكون والذي لهُ قد كوّنا

فيخيل لك هذا المطلع وتحسب ان ذلك كلام لا شية فيه واذا بك تتحدر الى فلسفة غريبة فيها منطق واضطراب وشك وايمان وتحرر من الايمان — الايمان الذي لا يسلم به العقل ويقف حجر عثرة في سبيل تحقيقه — وفيها تقراءى فلسفة الرجل وعقيدتهُ ، فهو هنا يؤمن بمذهب الدور — التغير — ذلك المذهب القديم الذي انفرد به هو في العصر الحديث وكاد يضع اصوله والذي يقول فيه اننا نموت هنا ونحيا هناك ، نموت هنا بصورة ونحيا هناك بصورة أخرى فلا فناء ولا عدم ونظل هكذا دواليك الى ما شاء الله ابد الآبدين . وهذا المذهب لا يقرب من

مذهب الحلول كما يفهم بعضهم اذ الاول مبني على قوانين علمية اما الثاني فسائله افتراضية محضة قاله بعض المتصوفين في حالات غيبية بحتة شاهدوا في خلالها بصفاء ارواحهم كثيراً من غوامض الكون واسراره الحجبة فانطلقوا غير واعين لما يقولون . وقد فصل الزهاوي مذهب « الدور » هذا في رسالته العلمية الصغيرة « الجمل بما أرى » وسنفصله ونرد عليه بدورنا في مكانه من الكتاب . انظر اليه يخاطب هذه الروح التي تمثلها في قصيدته سيطرة آمرة

منك انبثقت بعدما فيك كنت أزمنا
فكنت طوراً خافياً وكنت طوراً بيّنا
وسوف ابقى بك من بعد الردى مرتهنا
وليس موتي غير تغيير يّ فيك السكنا
وليس في انتقالتي منك اليك من عنا
فلا انفصال عنك لي هنالك كنت ام هنا

يقول ذلك في الوقت الذي لا يصدق فيه الاساطير والمعتقدات باسلوب حكمي لاذع وبعقل متشكك جبار متحرر لا يبأ الا بالمنطق والمادة وما يتبعها من قوانين واحكام

فهو لا يؤمن الا بتلك الومضات الكهربائية التي تنبثق من تفاعل المادة تلك التي يعزو اليها تفسير الكون بما بثته من حياة في هذه الاحياء وانها ذلك الينبوع الذي يثر عليه السحاب ماء فلا ينضب وسيظل باقياً ما بقي ذلك السحاب عند قوله

ان الحياة ومضة منك ابت ان تكمنا
الى ان يقول الكون قد بنيته وانت خير من بنا
بك الوجود واجب فليس يقبل الفنا
وليس كون ماله من اول مكونا

وهو هنا على ما يلوح لي يخاطب المادة او بعبارة أخرى يخاطب الأثير وهذا هو الصحيح . فالاثير عنده هو كل شيء ، وهو هنا يفترض الاثير كأداة خالقة مسيطرة وان كان الاثير كما نعتقد ليست له تلك القوة الفعالة القادرة التي ينسب اليها الزهاوي كل شيء في حين أنها هي بعض الشيء وعلى حد قول العلماء المعاصرين « ليس الأثير غير افتراض علمي لتفسير بعض مظاهر الكون العجيبة » وانه — اي الاثير — بعد تجربة ميكلصن — مورلي وأضرابهما من العلماء المعاصرين فقد سحره القديم ومكانته التي كان عليها . . . . . ولنا كلام طويل عن الاثير للحيز الكبير الذي شغله في حياة الزهاوي العلمية سنثبته في مكانه من الكتاب . ولنعود لنحدثك عن ذلك الروح الذي عناه في ذلك القصيد فما هو الا الاثير وما الاثير عنده غير ما اثبته

أحدى مقطوعات ملحمته الخالدة « ثورة في الجحيم » التي سيأتيك ذكرها في هذه الابيات الاربعة عندما سألهُ المتحدث عن الذات الالهية

ما لكل الاكوان الا إلـه واحد لا يزول وهو (الاثير)
منهُ هذا الوجود فاض عمياً واليه بعد البوار يصير
ليس بين « الاثير » و « الله » فرق في سوى التقطان هذا الشعور
وبحسبي أني صدعت بما اد ري على علمي انهُ سيضير

ومن تحقيقاتي العلمية مع المرحوم الزهاوي نجد انهُ في تعليلاته لظاهر الكون لا يخرج عن دائرة المذهب المادي الذي يؤمن به ويتعصب لهُ ولا ضير عليه في ذلك لولا انهُ تبعاً لذلك يثير في هذا الموضع وفي غيره قضية من اكبر القضايا الفلسفية « اصل الحياة » و « غاية الحياة » ويعزو الى المادة كل شيء في حين أن الماديين انفسهم بعد النشاط العجيب الذي ابدوه طوال قرون عديدة قد تقهقر دعاتهم في مستهل هذا القرن واعترفوا بعجزهم المطلق عن تفسير بعض عجائب الكون ومظاهره وفي هذا ما يخذلهُ — ان لم يدمغهُ — غير أنهم لم ينسحبوا من الميدان بعد ولم يكفوا ايديهم الا ان دعواهم أصابها الفتور والعياء الى حد كبير . .

وسنرد عليهم وبين هذا المذهب ومدى تأثيره عند الزهاوي فيما سأطالعك بهِ من فصول أتبعها في كتابي عنهُ ولا استطيع قولاً في هذا المجال اليوم، الا ان الفلاسفة والعلماء طوال هاته القرون من عهد الانسانية الى اليوم سعاة في اماطة اللثام عن هاته الحقيقة الكبرى ولم تسلن الفاصلة بعد

كنا نريد ان نمر كراماً على هذه القصيدة وما يشابهها فان للرجل تفكيره ومنطقه الخاص وقد أودع خلاصة آرائه في رسائله العلمية وناقشناه فيها وفي معتقداته وانتهينا من ذلك كله الا ان للحقيقة حرمة وللتاريخ حكماً ، ونرى ان تلك الآراء رغم طابعها العلمي لم تحقق علمياً ولذا تناقشها في مكانها ونرد عليها رداً هادئاً يدحضها — في رأينا — من أساسها

ويجب أن لا يختلط عليك الأمر يا صاحبي فتعتقد أننا نرفض الشعر الفلسفي او الشعر العلمي كلا بل بالعكس نعتقد أننا في حاجة ماسة الى شعراء علماء فلاسفة ! ! علماء يسبحون في أجواء الكون ويقصون علينا رحلاتهم ويخلقون لنا جواً عطراً عبق الشذى فوّاح العبير لا يقصون مشاهد العلم فحسب ، بل يقصون مشاهد الطبيعة ومشاهد الجمال ومشاهد الحب بعاطفة من الشعر الجميل

ويغوصون الى الاعماق باحثين عن الدر والذهب غير متناسين جمال البحر وسحره الرائع العجيب ، ثم يعرجون الى معارج الأفلاك المتناثرة فيضعوا أصابعهم فوق الحقيقة المطلقة ويعلموا الناس معنى الحياة ومعنى الخلود . . . وعندي أن الشاعر الفحل هو الذي لا ينسى الحب والجمال والعاطفة في قصائده العلمية والفلسفية ، حتى اذا فقده العلم أو أغفلتهُ الفلسفة يوماً ما لا يضيع

هباءة ، وكذلك الشاعر انشاشد الحب والخير والجمال يعوزه العلم الغزير والمعرفة الشاملة والثقافة الدسمة حتى لا تنقد أفكاره وأخيلته بجانب أفكار السوقة وخيالاتهم

أما الشاعر الفرد فهو ذلك العالم الفيلسوف المتعمق واثقاً بأناشيد الحب وأهازيج الجمال

— ٥ —

ايمان الرجل بالمذهب المادي مما لا ريب فيه ، وهذا المذهب من اعرق المذاهب الفلسفية القديمة — وسنرد عليه في حينه كما اسلفنا — غير اننا لا نرى مندوحة عن مناقشة بعض قصائده التي أوردها ناحية من ايمانه ونكتفي بمناقشة القصائد وتحليلها تركيبن نقد معظم التراكيب والالفاظ لفرصة اخرى . ففي قصيدته (الشاكية) التي مطلعها

بعد ان اردى فأهبط رمسي ... بسنا غدي ويومي وأمسي

جدث فيه كل دهري ليل ... ما رضواه فجره من بجس

ظلمة فوق ظلمة انا فيها ... ابداً مصبح كما انا ممسي

تشم رائحة ايمان الرجل وسخره بالمعتقدات الفاشية في منطق عجيب يتكرمها اجتمع عليه الناس ويهدم آمال العامة جملة — ولا غرو فهذا هو لباب المذهب المادي — داعياً في الوقت نفسه الى الاستمتاع باطايب الحياة ومباهجها قبل ان تأتي ساعة الرحيل الذي ليس له من بعده من نشور

انما الدنيا جنة لسعيد ... وجحيم لذي شقاء وبؤس

لك فيها الحياة ما طبت عيشاً ... كل شيء فلا تبعها ببخس

وكلها على هذا النسق الابيقوري وليس فيها من جديد غير قوله

ما نظمت القريض الا بإلها ... م جديد من السماء لنفسي

قيسوه من قول من سبقوهم ... ومن الشمس والكواكب قيسي

وقصيدته (لظرات ورنات) التي مطلعها

نأى بي عن الاصحاب في سيره العمر ... ويرجع أحياناً اليهم بي الذكر

كشفيقها — الشاكية — تبين ما استتر من عقيدة الرجل

ألا انما الارض التي نحن فوقها ... هي المهد للابناء ثم هي القبر

وان شئت فاعدها وان شئت فاسمها ... فليس بذي بال عقوقك والبر

الى ان يقول : يقولون في الايمان كل نجاتنا ... وما ربّ ايمان قويّ هو الكفر

وينتظرون الفجر في ليل قبرهم ... ولكن ليال القبر ليس لها فجر

وثالثة الاثافي قصيدته (الموت) التي لولا الاستشهاد بها لما ذكرتها ذلك لانها فوق حلها الموت في طياتها مهلهة الاسلوب مفككة الاوصال سقيمة المعنى ومطلعها

زاغت زوال الحياة فانتهى الحركات
اهوى الحياة ولكن ما للحياة ثبات

وانها حقاً زاغت منها الحياة فقضت نحبها من غير دمعة رثاء او كلمة عزاء. انظر اليها في الديوان تجده فيها قد وصف الموت والاموات وخاف الموت خوف الشاة الذئب وقطع انها بالموت تودع الآمال وتنتهي وينتهي معها كل شيء وفي القبور يتساوى الجميع لافرق بين احد وهذا كلام لا غبار عليه ... ولكن ... وما اقسى ولكن هذه... تلك الكلمة التي يرد بها الناقد الغربه الحق الى نصابه ... ان منهُ قول المعري « غير مجدٍ في ملتي واعتقادي »

فالمعري قد تصوَّف وتأمل وفكر .. ونظر الى الكون نظرة الفيلسوف الشاعر فأبدع في تصوير الحقائق الشعرية وفي تصوير الحقائق المادية وكانت قصيدته نحتاً جديداً في الشعر الفلسفي المعزوج بالعاطفة ذلك الذي تتوق اليه ونشده وكأننا ننشد الصفاء واخويها

اما (الموت) عند الرجل فخالٍ من كل شيء خال من العاطفة التي حيكت حوله من ملايين السنين اي من عهد الانسانية الى اليوم ، خال من الروح التي ليس لنا ان نتخلى عنها قيد شعرة. مهما تخلت عنا ، خالٍ من الحلم الجميل الحلم الذي يحبب لنا الحياة

ولا عم له غير تمجيد الحياة تمجيد عبادة في الوقت الذي ينكر فيه البقاء بعد الموت — الخلود — والبقاء بعد الموت حلم من احلام الانسانية العذاب، ونحن تشبثنا به لان الانسانية لو افتقدته لشتيت طويلاً واختل التوازن الاجتماعي وعمت الفوضى ارجاء الارض قاطبة وما انفكت القوانين الوضية فتيلاً في كبح جماح الغرائز البشرية التي تتمتد — في جميع اطوارها — على العدم قبل البناء. وهذه في الواقع — انكار البقاء بعد الموت — اهم شعب المذهب المادي ، ولنا كلام طويل للرد عليها سنثبتهُ في حينه وليس لنا في هذا المقام من عزاء نتعزى به غير قول الشاعر « ما ضاق العيش لولا فسحة الامل »

— ٦ —

أهم ظاهرة في شعر الرجل وفلسفته — بل خير ظاهرة في فلسفته وشعره — التمرد والثورة، التمرد على الطغاة والظالمين والمنافقين والمتصنعين والجهلاء والمتكبرين ، الثورة على الجمود والجهل ، والضعف ضعف الشرق واستكانته لما تحيفهُ من ظلم وينزل به من بلاء ، الثورة التي تفشلنا من وهدتنا هذه الى الحق والحرية والنور . وخير شيء عند الرجل يمثل فلسفته ويطبعها بطابعها الخاص « القوة » التي لا تنبأ بالسدود ولا بالقوى مجتمعة ، القوة التي تريد التحرر والانطلاق الى رحاب الارض بما وسعت وآفاق السماء بما اتسعت، فبقدر بساطة أسلوبه ووداعته تجد قوته في معانيه هذه المعتدة بنفسها الشامخة بأنفها تروعك بكبريائها وتحملك على أجنحتها الى طريق المجد الذي عبَّدهُ لنا الاجداد

« البقية في مكتبة المقتطف »